

دعوة إلى التراث الشعبي - الحلقة الخامسة: الثقافة المادية الشعبية والفنون الشعبية

مجلة التراث والمجتمع العدد 46 - سلسلة دعوة إلى التراث الشعبي - د. شريف كناخنة - 2007/12/20م - 11:30 ص



تحدثنا في الحلقة السابقة (الرابعة، العدد 45) عن كيفية دخول علم الفلكلور إلى العالم العربي وإلى فلسطين بشكل خاص وعن مراحل تطور الحركة الفلكلورية الفلسطينية منذ ظهورها حتى الوقت الحاضر. وكنا في الحلقات التي سبقت ذلك قد تحدثنا عن بعض المفاهيم الأساسية في حقل الفلكلور، وعن بعض الصفات الأساسية التي تميز مادة الفلكلور عن غيرها من المواد الثقافية. ندخل في هذه الحلقة إلى كيفية تبويب مادة التراث الشعبي ثم نبدأ بدراسة هذه الأبواب كل على حدة.

في الحلقة الحالية ندرس باب "الثقافة الشعبية المادية والفنون الشعبية" فنبين العلاقة بينهما ونوضح طبيعة ومواصفات كل منهما. ونكرس الحلقتين التاليتين (السادسة والسابعة) لكيفية دراسة الثقافة المادية ثم لطرح بعض الأمثلة التي تجمع بين الثقافة المادية الشعبية والفن الشعبي.

قد يكون أول ما يجلب اهتمام القارئ في هذه الحلقة ويستثير تساؤله هو عنوان الحلقة والإبهام في هذا العنوان يأتي من حقيقة أن يجمع بين موضوعين يظهران وكأنهما متضادان أو على الأقل بعيدان عن بعضهما، وهما "المادة" من جهة و"الفن" من جهة أخرى. إذ أن "المادة" عادة تجلب إلى أذهاننا معاني التجسيد والواقعية والعلمية، بينما يجلب "الفن" معاني التجريد والتعبير والإحساس والخيال. فما الذي يجعلنا نضعهما في باب واحد. من أبواب التراث الشعبي؟

يقسم الدارسون مجال التراث الشعبي ككل بطرق مختلفة ولكن من أكثر طرق التبويب شيوعاً الطريقة التالية:

يقسم التراث الشعبي إلى:

1. المعتقدات والمعارف الشعبية.

2. العادات والتقاليد الشعبية.

3. الأدب الشعبي وفنون المحاكاة (أي فنون قولية وفنون حركية).

4. الفنون الشعبية والثقافة المادية.

نلاحظ هنا أن الفنون توزعت على بندين، "الفنون القولية والحركية" في البند الثالث و"الفنون الشعبية" في البند الرابع. ولكن هذه التسميات في الحقيقة ليست دقيقة لأن الفنون "القولية والحركية" الموجودة في البند الثالث هي في الحقيقة فنون شعبية تماماً كما هو الحال مع الفنون الشعبية المذكورة في البند الرابع. ولا بد إذاً من وجود أبعاد أو مواصفات أخرى تميز الجزئين عن بعضهما وإلا لما كنا وضعناهما في بندين مختلفين هنا.

وإذا أعدنا النظر في البنود الأربعة الموجودة أعلاه نرى أن الثقافة المادية الشعبية جاءت كلها في البند الرابع مع ذلك الجزء من الفن الذي أسميناه تجاوزاً "الفنون الشعبية" أي أن ما يميز هذا الجزء من الفن عن أجزاء الفن الشعبي الأخرى هو نفسه ما يربطه مع الثقافة المادية وما يجعلنا ندرجه معها في بند واحد وهذا ما سنوضحه الآن.

قلنا أن الكائن بحاجة إلى التوافق مع البيئة من أجل البقاء، أي أنه بحاجة إلى الحصول على ما يضمن بقاءه واستمرارية نوعه من البيئة، وهذا يتطلب من الكائن أن يطوع الخامات البيئية وأن يستغلها بما يتناسب مع حاجاته وأغراضه وهذا يعني تحويل المصادر الطبيعية إلى أشياء ثقافية تصلح لاستعمال الإنسان وتلبية حاجاته.

حاجات الإنسان بشكل عام نوعان، حاجات بيولوجية جسدية كالحاجة إلى الغذاء والحاجة إلى الدفء والحاجة إلى الإشباع الجنسي، وحاجات يمكن أن نسميها روحية وجدانية أو نفسية، حسب تعريفنا لطبيعة الكائن البشري، كالحاجة إلى الحب والحاجة إلى الأمن والحاجة إلى الجمال وغير ذلك. والنوع الثاني، حسب النظرية الداروينية، منبثق عن الأول ومكرس لخدمته، ولكن هذا الأمر لا يهمنا هنا، بل أن ما يهمنا هو أن النوع الثاني قد أصبح الآن مستقلاً عن الأول وضرورياً مثله لحياة الإنسان وبقائه، والثقافة هي وسيلة الإنسان الرئيسية لإشباع كلا النوعين من الحاجات من خلال البيئة، الطبيعية منها والاجتماعية.

ولكي يحصل الكائن على ما يبتغيه من البيئة يجب أن يتفاعل معها أي أن يؤثر عليها أو يترك فيها أثراً. ولكي يترك أثراً يجب أن يتصرف أو يسلك جسمانياً، وسواء أسمينا ما يكمن وراء التصرف الجسماني فكراً أو إحساساً أو عاطفة أو شعوراً أو غريزة فإن الأثر الذي يتركه في البيئة يختلف في مدى وضوحه واستمراريته حسب وسط الاتصال الذي يستعمله الكائن. فالسلوك الجسماني قد ينتج عنه إشارة رمزية أو كلمة، أو حركة تترك أثراً في جسم مادي. هذا النوع الأخير أي الأجسام المادية التي تحمل أو تجسد آثار السلوك الجسماني والذي يعبر بدوره عن الحاجات الجسمانية البيولوجية والحاجات الروحية - العاطفية للإنسان، هذه الأجسام في مجتمع من المجتمعات، هي ما نسميها الثقافة المادية لذلك المجتمع وهي نفس الوقت تحتوي على ما نسميه "الفن الشعبي" لذلك المجتمع. (هذا مع العلم، كما ذكرنا سابقاً، أن الفن المجسد بالأجسام المادية لا يساوي في الحقيقة كل الفن الشعبي إذ أن هناك الكثير من الفن مما يصوغه الإنسان في وسط آخر غير الوسط المادي مثل الكلمة والحركة الرمزية والإشارة. لذلك فإن علينا أن نتذكر أننا في هذه الوحدة نقصد بمصطلح "الفن الشعبي" الجزء المادي المجسد فقط من الفن الشعبي).



هذه الطبيعة المزوجة لمثل هذه "الأجسام الثقافية" [Artifacts] هي التي جعلت العاملين في حقل الفلكلور يجمعون بين "الثقافة المادية" و"الفنون الشعبية" في تبويبهم ودراساتهم للتراث الشعبي.

فالثقافة المادية والفنون الشعبية المادية هي أجسام مادية مرئية ولموسة صنعت أو أُجري عليها تغيير أو تطوير بيد إنسانية تبعاً لمهارات ومواصفات تقليدية عبر الأجيال، تخدم حاجات إنسانية عملية وفنية.

ويمكننا أن نعيد صياغة هذا التعريف ونلخص ما قلناه حتى الآن بقولنا أن الجزء من ثقافة بني الإنسان الذي نتحدث عنه في هذه الوحدة يمتاز عن باقي أجزاء الثقافة بأنه يجمع بين صفات ثلاث قد توجد كل واحدة أو اثنتان منها في جزء آخر من الثقافة ولكن لا تجمع كلها معاً إلا في الجزء الذي نحن بصدده في هذه الوحدة وهذه الصفات هي:

1. أن هذا الجزء من الثقافة يجمع بين الاعتبارات "الفنية" الجمالية والاعتبارات "الوظيفية" العملية في آن واحد.
2. أنه هذا الجزء من الثقافة "مادي".
3. أن هذا الجزء من الثقافة "شعبي".

وسنقوم الآن بتوضيح كل من هذه الصفات وتبيان مدى مساعدة كل من هذه الصفات في تمييز هذا الجزء من الثقافة عن الأجزاء الأخرى.

الفن والوظيفة في الثقافة الشعبية

للإجابة على السؤال الأول أعلاه نعود إلى ما ذكرناه من أن المواد الخام المتوفرة في البيئة ليست "ثقافية" ما لم يطورها الإنسان أو يحدث فيها تغييراً يتناسب مع الحاجة التي تستعمل "القطعة الثقافية" لأدائها أو لإشباعها. كذلك قلنا أن الحاجات قد تكون مادية عملية تنفيذية أو تكون روحية عاطفية شعورية مجردة. فتطوير القطعة المادية لخدمة الحاجات العملية التنفيذية يجعل منها "أداة" (Tool, Handicraft) أو صناعة حرفية". أما تطويرها لخدمة حاجات روحية عاطفية جمالية فيحولها إلى قطعة فنية".

ولكن علينا أن نلاحظ هنا عدداً من النقاط منها أن فكرة اقتناء شيء ليس له أي وظيفة أو حاجة عملية هي مفهوم غريب على معظم ثقافات العالم وهو مفهوم غريب على جميع الثقافات الشعبية التقليدية بشكل خاص. والإنسان العادي الذي يصنع أداة بطريقة تقليدية فإنه يأخذ الناحية العملية التي من أجلها يصنع الأداة بعين الاعتبار أولاً ولكنه لا يستطيع ولا يرغب في أن يمنح شعوره بالجمال من التأثير على عمله ولكن بطريقة لا تعطل على الناحية الوظيفية بل تكملها وتزيد من فعاليتها وليس هناك ما يجعل الجمال يتعارض أو يتناقض بالضرورة مع الوظيفة. كذلك فإن قضية تقييم الناحية الجمالية هي قضية نسبية، وقد يكون الجمال في عين الناظر وليس في الشيء نفسه، وقد يُلَيِّ جمال الأداة من فعاليتها وسهولة استعمالها ومدى تناسبها مع الوظيفة التي صنعت من أجلها، ومن النتائج المرضية التي أعطتها تلك الأداة.



لذلك نجد أنه من الصعب تبويب الثقافة المادية الشعبية إلى قطع فنية وقطع غير فنية بل نجد أن نفس القطعة لها جانب عملي وجانب جمالي فني، ومع أن الاعتبارات العملية تسود عادة على الاعتبارات الفنية في الأداة الشعبية إلا أن معظم الفن الشعبي موجود في إطار الأدوات والصناعات الشعبية الحرفية العملية. والحكم النهائي على مدى "فنية" القطعة من الثقافة الشعبية المادية تعتمد على نوايا الصانع وأهدافه من جهة وعلى الحدود والمفاهيم التعبيرية الجمالية التقليدية للمجتمع الذي يعيش ويعمل فيه من جهة أخرى. فالثقافة الشعبية المادية تختلف عن السلع الصناعية الجماهيرية العملية من جهة وعن القطع الفنية الرسمية الحديثة من جهة أخرى بأنها تجمع بين الوظيفتين العملية والجمالية.

الثقافة الشعبية المادية وغير المادية:

قلنا أن هذه الوحدة تدور حول الثقافة الشعبية المادية ولا تتعلق بالجزء غير المادي من الثقافة الشعبية المادية ولا تتعلق بالجزء غير المادي من الثقافة الشعبية. فهل لهذه الثقافة الشعبية المادية، سواء غلبت عليها الوظيفة العملية أو الوظيفة الجمالية الفنية، بطبيعة كونها مادية ما يميزها عن الثقافة الشعبية غير المادية؟ من الطبيعي والمنطقي أن يكون جواب هذا السؤال إيجابياً وإلا لما وضعت الثقافة الشعبية المادية في وحدة منفصلة ومستقلة عن غير المادية. فمن الصفات التي تميز الجزء المادي من الثقافة الشعبية، بطبيعة كونه مادياً ما يلي:

1. الثقافة الشعبية المادية تكون مصنوعة من مواد متوفرة في البيئة الطبيعية المحلية لذلك فإنها تظهر بسهولة وبوضوح العلاقة بين الإنسان والبيئة وتشير إلى طرق توافق الإنسان مع بيئته، وأساليب تحويل البيئة الطبيعية إلى بيئة ثقافية.
2. بطبيعة كونها مادية فمن السهل ملاحظة مدى التناسق والترابط بينها وبين البيئة الطبيعية المحلية، والطقس من حيث المواد والبناء والشكل والوظيفة والاستعمال.
3. بطبيعة كونها مادية يكون من السهل ملاحظة العلاقة بينها وبين الثقافة والسلوك والعادات والتقاليد والقيم المحلية.
4. كونها مادية ملموسة ومجسدة يعطي الإنسان شعوراً بأنها صادقة ويمكن الثقة بها والاعتماد عليها.
5. لأنها مصاغة في أشياء مادية فهي مجسدة وتشغل حيزاً ولها أطوال، وألوان، وشكل، ووزن، ويمكن لمسها ورؤيتها وشمها، كل هذا يمكن الإنسان من التفاعل معها ودراستها بطرق عديدة تختلف عن طرق دراسة التراث غير المادي، وتزيد عنها.
6. أشكال الأشياء المادية بطيئة في التغيير ولذا يستعمل الشكل للتمييز بين أنماط وأساليب عمل المناطق المختلفة.
7. الثقافة المادية، بعكس أنواع الفلكلور الحركي أو الشفوي، لها وجود مادي موضوعي يستمر بعد لحظة خلقها، لذلك فإن لها أهمية تاريخية وهي تكون تدخلاً للماضي في الحاضر، ويمكن من خلالها تذوق الحياة اليومية للماضي الذي صنعت فيه.
8. لأن الأشياء المادية وجود واستمرارية مستقلة عن صانعها أو صاحبها فإنه يسهل استعمالها كرموز توصل فكرة أو رسالة معينة عنه كأن تكون رمزاً لطبقة الشخص الاجتماعية أو المهنية أو هويته الإقليمية أو العرقية.
9. الأشياء المادية التي يصنعها الإنسان من السهل أن يسقط عليها الناس بعض أفكارهم ومشاعرهم وكأنها انعكاس لأنفسهم، لذا نجد أن الطاولة لها "رجل" والكرسي له "ظهر" والفنجان له "ذان" والابريق له "رقبة" وهكذا.



10. الثقافة المادية تكون مصنوعة باليد وتعتمد على السلوك الشعبي المنظور وليس المسموع.

11. الثقافة المادية غالباً لا تستهلك أثناء الاستعمال مع أن بعضها يستهلك بعد مدة ليست طويلة مثل الطعام وبعضها يتلف بعد مدة مثل باقات الزهور.

12. الثقافة المادية يسهل اقتلاعها ونقلها من مكانها الأصلي ولذا يسهل عرضها مما يسهل وجود المتاحف والمعارض.

الثقافة المادية الشعبية وغير الشعبية

ذكرنا قبل قليل أن للثقافة المادية ما يميزها عن الثقافة غير المادية، ولكن هل جميع الثقافة المادية شعبية؟ الجواب طبعاً لا، إذ أن هناك الكثير مما يحيط بنا في حياتنا اليومية في البيت وفي المكتب وفي الشارع وفي الدكان وفي كل مكان مما هو جزء من ثقافتنا المادية ولكنه ليس شعبياً. فجهاز الحاسوب مثلاً هو جزء من ثقافتنا المادية ولكنه ليس شعبياً. وكذلك الحال مع السيارة والملابس الجاهزة النقي نشتريها والشقة التي نسكن فيها والأطعمة المصنعة التي نأكلها وكذلك معظم الأشياء الماضية التي نتفاعل معها في حياتنا. هناك من جهة أخرى العديد من الأشياء الثقافية التي نراها ونستعملها في حياتنا اليومية والتي هي شعبية. فالكثير من الملابس خصوصاً الثياب المطرزة التي تستعملها النساء في قرانا هي شعبية وكذلك الحال مع الكثير من أنواع الطعام التي تطبخها في البيت، والأدوات التي نستعملها في الحديقة أو الحقل هي شعبية.

السؤال الذي نطرحه الآن هو: هل للجزء الشعبي من الثقافة المادية ما يميزها عن الجزء غير الشعبي منها؟ الجواب هو أن لها في الحقيقة الكثير مما يميزها، وإلا لما تمكنا في هذه الوحدة من دراسة الثقافة المادية الشعبية واستثناء الجزء غير الشعبي منها.

ومن الصفات التي تميز الجزء الشعبي عن الجزء غير الشعبي من الثقافة المادية ما يلي:

1. عنصر التقليدية والاستمرارية: عبر الزمن هو من أهم مميزات الثقافة الشعبية ويكون ذلك في طرق الحصول على المواد وفي طريقة التصنيع وفي طرق استعمالها أو طرق استهلاكها، هذه جميعها تجري بطرق ومواصفات تقليدية متوارثة ذات جذور عميقة عبر الزمن وليس حسب تعليمات فنية رسمية مقننة أو مكتوبة تدرس بطريقة أكاديمية .
2. عنصر الوراثة: تكون هذه المعلومات والمواصفات عادة متوارثة شفويّاً أو عن طريق التقليد وفي إطار العائلة أو بين مجموعات الأقارب أو مجموعات العمل المحلية.
3. عنصر الثقافة المحلية: يظهر في الثقافة المادية الشعبية تأثير الثقافة المحلية بحيث تظهر فروق محلية بين منطقة وأخرى وبين مدينة أو قرية وأخرى، وكثيراً ما تظهر الفروق بين عائلة وأخرى كما يكون الحال مثلاً في الطبخ الشعبي .
4. عنصر البيئة الطبيعية المحلية: يظهر في الثقافة الشعبية تأثير البيئة الطبيعية والطقس من حيث الشكل والوظيفة والمواد المستعملة، فالفرن الشعبي مثلاً يتأثر بأنواع الوقود المتوفرة في البيئة الطبيعية المحلية. وهي بذلك تعكس طرق توافق الإنسان مع بيئته الطبيعية المحلية.



5. عنصر الحاجات المحلية: تغلب على الثقافة الشعبية الاعتبارات الوظيفية العملية ولذلك تظهر فيها بوضوح تأثيرات الحاجات المحلية عن الخطة الذهنية لتصميمها وبناءها وعملها.
6. عنصر النمطية: بسبب جميع هذه التأثيرات المحلية فإنه يسهل اكتشاف أنماط زمنية وجغرافية في الثقافة الشعبية ولذا يسهل التعرف على زمان ومكان صنعها وهذا يختلف كثيراً عن السلع الصناعية التي تكون موحدة عبر الزمان والمكان.
7. عنصر تعدد الوظائف: تكون عادة للأداة الشعبية عدة وظائف وبشكل خاص فإنها تمتاز بأنها تجمع بين الوظائف العملية والوظيفية الفنية الجمالية وهي تختلف بذلك عن الفن الرسمي الحديث الذي تخلى تماماً عن النواحي العملية.
8. عنصر الرمزية: يتكرر في الثقافة الشعبية الكثير من الرموز المتفق عليها في المجتمع المحلي والتي تمثل التجارب والقيم المشتركة التي تربط بين أفراد المجتمع.
9. عدم الاختصاص: صانع الأدوات الشعبية عادة لا يكون مختصاً أو محترفاً وإنما يقوم بصناعة أشياء يحتاج إليها في حياته اليومية، وهو يقوم عادة بتصميمها وتنفيذ جميع مراحلها وليس بتكرار مستمر لنفس المرحلة القصيرة جداً كما هو الحال مع الصناعات الجماهيرية (؟) [Mass Produced].
10. تعدد الحواس: يعتمد الفن الرسمي الحديث على حاسة البصر فقط بينما قد يدخل في الفن الشعبي الذوق والشم كما هو الحال في الأكل الشعبي مثلاً.
11. عنصر القدم: الفنان الشعبي لا يسعى إلى التجديد بل ينتج أشياء مشابهة جداً للأشياء السابقة والقديمة والتي قد تعود إلى زمن بعيد جداً، كما هو الحال مع صناعة الفخار الشعبي التي ترجع إلى عدة آلاف السنوات دون تغيير كبير.
12. عنصر التكرار: يمتاز الفن الشعبي بالتكرار والتماثل بين أجزائه.
13. عنصر التماهي: أفراد المجتمع المحلي يتماهون مع الثقافة المادية الشعبية التي ينتجونها في طريقة صنعها واستعمالاتها والمناسبات التي تستعمل أو تستهلك فيها، ويعتبرونها جزءاً من هويتهم.

استمرار وجود وإنتاج الثقافة الشعبية المادية:

الكثير من الصفات التي ذكرناها أعلاه والتي تعطي بعض أنواع الثقافة المادية نكهتها الشعبية توحى بأن هذا النوع من الصناعات قد يكون في طريقه للاختفاء نتيجة للتغيرات الاجتماعية التي تسود معظم مجتمعات العالم ونتيجة لقلّة جدواها الاقتصادية وعدم مقدرتها على منافسة السلع الصناعية الجماهيرية Mass التي تعتمد على التكنولوجيا الحديثة خصوصاً تكنولوجيا الالكترونيات والحوسبة. إن هذا الإيحاء صادق إلى درجة بسيطة فقط إذ نجد أن الحرف الشعبية اليدوية ومنتجاتها مازالت مستمرة ومنتعشة في المجتمعات التقليدية وكذلك في الأجزاء الريفية البعيدة والمعزولة من المجتمعات الصناعية الغربية كدول غرب أوروبا وأمريكا الشمالية. وهذا يعود إلى عدد من الأسباب منها:

1. أن هناك الكثير من الفقراء حتى في أغنى مجتمعات العالم ممن لا يجدون أعمالاً تدر عليهم دخلاً أكثر من الصناعات الشعبية التقليدية مهما كان الدخل منها قليلاً.



2. أن المواد الخام المستعملة في هذه الصناعات مثل الأغصان أو الحجارة أو الخرق قد تكون رخيصة جداً بحيث يمكن للشخص أن يكسب دخلاً ولو بسيطاً رغم الإنتاج القليل.
3. بعض الحرف اليدوية الشعبية استمرت لأسباب دينية لأن بعض الأديان تتطلب طرق عمل معينة مثل تحريم استعمال الآلات الميكانيكية أو ذات المحرك الصناعي. كما أن بعض الأديان قد تتطلب تصنيع الطعام بطرق معينة مثل ذبح الطيور والحيوانات عند المسلمين.
4. بعض الحرفيين استمروا في عملهم لأنهم يقومون بتصليح أشياء صناعية تنتج في مصانع كبيرة وبشكل إنتاج جماهيري. مثل هؤلاء الحرفيين يقومون مثلاً برتق الملابس والكسرات أو يقومون بتقصير أو تضيق أو توسيع الملابس، وإعادة حشو وتنجيد المقاعد أو إعادة برنخة (؟) وطلاء الأثاث الخشبي أو غير ذلك مما لا يستطيع الصانع الأصلي القيام به.
5. بعض الحرف اليدوية الشعبية استمرت لأنه لم تُصنع حتى الآن آلات تقوم بنفس العمل مثل صنع سلال القصب أو سلال القصبان (من أغصان بعض الشجار البرية).
6. بعض الإنتاج اليدوي يكون له احترام وتقدير ومنزلة رمزية أكثر من الأشياء الشبيهة المصنوعة في المصانع بالجملة، مثل الأحذية والسجاد والبسط والحلي.
7. بعض الصناعات الحرفية استمرت لأنها ارتفعت قيمتها إلى منزلة الفنون الجميلة مثل التطريز وصناعة الخزف وصناعة الفضة.
8. بعض الحرف استمرت لأن الناس يستعملونها كهواية للتسلية والترفية والتعبير عن الذات فيصنعون قطعاً عملية مزخرفة لاستعمالهم أو لأصدقائهم مثل الحياكة، النسيج، شغل الإبرة، عمل قطع أثاث خشبية أو معدنية.
9. بعض الأدوات الشعبية استمرت لأنه كان دائماً من المعتاد أن يصنع كل فرد منها ما يحتاجه لنفسه كأن يصنع الفلاح بعض الأدوات الزراعية لاستعماله الخاص مثل المنساح للحراث والعبية والشاروط لقطف الزيتون أو أن يقوم ببناء السناسل لحماية مزرعته.